مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189
مجلد: 10 عدد 1 جوان 2019
ص ص 201- 231
اللاتواصل باعتباره عائقا للعيش المشترك

اللاتواصل باعتباره عائقا للعيش المشترك من خلال مسرح العبث عند «يوجين يونيسكو»

عبد الصّمد بسدات
جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم
bessabdess_22@outlook.fr

تاريخ الإرسال: 23/ 10/ 2018 ؛ تاريخ القبول: 09/ 03/ 2019

Uncommunication as an obstacle to Coexistence throughout the Eugène Ionesco's Theatre of the Absurd

Abstract :

The aim of the present paper is to shed light on the phenomenon of humans' uncommunication that often results in ignoring and rejecting the other. The fact, which indirectly interrupts people's coexistence. Although this uncommunicative fact negatively proves itself in bringing gaps between nations, but it still takes part at the core of their relationships through the means of language. To investigate such a problematic, theatre and mainly theatre of the absurd will be used as a tool for it usually brings into existence people's reality on stage. Starting from a communicative standpoint toward an uncommunicative end, which most of the time widen the gap and prevent people from being

المؤلف المراسل: عبد الصمد بسدات
Bessabdess_22@outlook.fr

together. The question that may raise here, however, is how humans can establish their coexistence without communication?. Hence, in an attempt to answer this question, Eugene Ionesco's play "The Bald Soprano" (1950) will be used as an example to deploy such a phenomenon that Ionesco himself called "A Tragedy of Communication".

Keywords: Coexistence; Communication; Uncommunication; Theatre of the Absurd; Eugène Ionesco

الملخص:

يُعنى هذا البحث بظاهرة اللاتواصل بين البشر التي أقلُّ ما يقال عنها، أنّها مسبِّبة للتنافر والجفاء ونفي للآخر، لهذا نجدها تسير حتما في خطّ عكسي لفكرة العيش المشترك، علما أنّها سلبيّة وتزيد في خلق الفجوات، إلا أنّها موجودة في قلب العلاقات الإنسانيّة، وشرط وجودها اللّغة، وعليه ارتأينا أن نُميط اللّثام عنها من خلال مرجعيّتنا المسرحيّة، باعتبار أنّ المسرح وسيلة توعيّة طالما أخذ على عاتقه عرض واقع الشعوب على الخشبة، وعبر مقاربة تحليليّة انطلاقا من نظريّة التواصل، كأساس موضوعيّ للوصول إلى الغاية المرجوة المتمثّلة في أن اللاتواصل يُعتبر عائقا حقيقيّا للعيش المشترك ووجود الأوّل هو نفي للآخر، لهذا كيف بالإمكان أن نؤسِّس للعيش المشترك بدون أن نتواصل؟.عليه اخترنا مسرح العبث عند «يوجين يونيسكو*» لكي يكون وسيلتنا

لإبراز المعضلة التي تتخبّط فيها البشريّة من خلال ظاهرة اللاتواصل التي شجبها وأدانها عبر مسرحيّة « «المغنيّة الصلعاء» التي لقّبها «بتراجيديا التواصل».

الكلمات المفتاحية: العيش المشترك؛ التواصل؛ اللاتواصل؛ مسرح العبث؛ يوجين يونيسكو

مقدمة:

ينطلق هذا البحث من فرضيّة مفادها أنّ اللاتواصل بين البشر ظاهرة إنسانيّة سلبيّة تعمل عل تقويض وإعاقة أي أمل في مدِّ جسور التواصل والتماسك الاجتماعيين، وصولا إلى عرقلة تجسيد فكرة العيش المشترك على أرض الواقع، ولبلورة هذه الفكرة وظّف البحث نظريّة التواصل في بعدها اللّساني عند «رومان جاكوبسون»*، كما في بعدها الاجتماعي عند «يورغين هابرماس»* لتكون سندا موضوعيّا لإثبات اللاتواصل من خلال المسرح بصفته فضاء للترفيه والتربية، ومن أعرق الفنون، و كذا باعتباره فضاء جماليا عبّر من خلاله الانسان عن أفراحه ومآسيه وأمانيه، كان ولا يزال مرآة عاكسة لحياته، هو فضاء للمعرفة والتثقيف والتوعية ونشر القيم والمبادئ لدى الجمهور.

إلاّ أن البحث اختار لونا معيّنا المعروف بمسرح العبث عند «يوجين يونسكو»* هذا الأخير الذي اهتمّ بالوضع الإنساني « La condition humaine » قبل كل شيء، حيث رفع من أمام أعين الناس مرآة الأنانيّة و الغرور، ووضع مكانها مرآة الحقيقة ، بذلك أبصر الناس واقعهم الذي تجسّد من خلال تراجيديا التواصل في معظم مسرحيّاته، «يونيسكو» الذي تفطّن لظاهرة اللاتواصل فشجبها ثم همّ لعرضها بطريقة عبثيّة و ساخرة و عنيفة في نفس الوقت، هدفه من ذلك توعيّة الناس بخطورتها و نتائجها الهدّامة على الانسانيّة جمعاء. ولهذا فانّ حيِّز اشتغال هذا البحث لا يعني بأيّة حالة من الحالات الخوض في عمليّة نقديّة لعمليّة التواصل في المسرح بل يخص محور عوائق وميسّرات العيش المشترك من خلال مقاربة تحليليّة غايتها اثبات واقعيّة هذه الظاهرة السلبية المتمثّلة في اللاتواصل باعتبارها عائقا، ومن ثمّة حتميّة تجاوزها بهدف تجسيد فكرة العيش المشترك.

تمظهرات العيش المشترك:

يعتبر مفهوم العيش المشترك مفهوما واسعا قد تتداخل فيه كل ميادين العلوم الإنسانية، لأنّه ببساطة يخص الكائن البشري في علاقته مع الآخر، لهذا قد يكون العيش المشترك واقعا، أمنية، أم فكرة طوباوية في انتظار التجسيد، وعليه قد تختلف المقاربات التي تخوض في هذا

المفهوم علما أنّ الغاية واحدة. و العيش المشترك يعني الاعتراف الصريح بالاختلاف الذي هو من طبيعة البشر.

هذا الاختلاف الذي يمكن أن يكون نعمة على الإنسانية قاطبة إذا استُغل لغاية خيِّرةٍ، كما يمكن له كذلك أن يكون نِقمة في حال سوء استغلاله وفرض منطق القوي انطلاقا من تفسيرات لمفاهيم تختلف باختلاف الأمم كما المجتمعات التي تتبنّاها، كالهوية والعقيدة ، الانتماء، الثقافة أو العرق، ما يعني، نفي للآخر انطلاقا من تفسيرات، تبريرات منغلقة على ذاتها، يصبح فيها الآخر عدوّا حتى و إن كان ينتمي إلى نفس المجتمع أو الأمّة، علما أنّه لنا في تاريخ البشرية نماذج كثيرة لاستغلال الاختلاف لغايات سيئة ومنها النموذج النازي وغايته التوسعية تحت غطاء تمجيد العرق الأرياني الجرماني باعتباره أعظم عرق ليس بالإمكان تواجده إلاّ على رأس هرم الأعراق، و في هذا الصّدد يقول هتلر لتبرير غايته « إن هدف نظامنا هو ضمان وجودنا، و تطوّر عرقنا و شعبنا، تغذية أطفالنا، الحفاظ على نقاوة دمنا وحريّة واستقلال وطننا، و لأجل أن يؤدي شعبنا المهمة الموكلة له» (Del Sol, Jean Philippe. 1982 : 82).

هي إذن أفكار(أيديولوجيات) تنفي الآخر على أساس عرقي، كما قد يرقى هذا النفي ليصبح نفي حقّ الآخر في الوجود. ولمواجهة

هذه الأفكار الهدّامة للمجتمعات والأمم، ظهر مفهوم العيش المشترك كمشروعٍ قابلٍ للتحقيق، خاض فيه الفلاسفة والمفكرون، حيث أخذ تعريفات مختلفة كان آخرها تعريف جمعية الأمم المتحدة الذي يتلخّص في « تقبّل الاختلافات، امتلاك القدرة على الاستماع إلى الآخر، الاعتراف به، احترامه، تقديره، إلى جانب العيش في سلام واتحاد»(قرار الأمم المتحدة.2017: 2)، بهذا أصبح العيش المشترك ضرورة انسانيّة وجب العمل على تطويرها عبر خلق مساحات للتوافق والتسامح، التضامن والحوار و الانفتاح عل الآخر بين البشر، بهدف تجاوز الخلافات و درء كلّ شرٍّ قبل حدوثه، لهذا فالعيش المشترك يعني أوّلا»مقاومة علاقات الغلبة والغطرسة، والقوة الغاشمة التي تصبغ حياة الانسان» (التريكي، فتحي.2009: 40).

ومن هذا المنطلق نستشف أن العيش المشترك هو أوّلا و قبل كل شيء ممارسة لها عدّة تمظهرات تنطلق من قناعة ثابتة بأنّ الاختلاف حق وجب تقبّله، التفاعل معه بإجابيه لغاية خيِّرةٍ ،حتى وإن اختلفت التوجهات كما القناعات التي قد تفضي إلى نزاعات كما الى صراعات، وذلك من خلال تجسيد مبدأ **التسامح** مع الآخر الرفق به، وفي ديننا الحنيف نجد أبهى صوّر التسامح حيث يقول الله تعالى «وَلا تَسْتَوِي

الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » (سورة فُصّلت. الآية:34).

كما هناك مبدأ آخر من شأنه أن يقوي عضد العيش المشترك و هو مبدأ **التضامن** مع الآخر مهما كان انتماءه ، عرقه ،ثقافته، عقيدته، بل يجب النظر إليه على أنّه إنسان، و من هنا فالتضامن في هذا السياق هو قيمة إنسانية تعمل على توحيد الأفراد و الجماعات الاجتماعيّة لخدمة غاية واحدة، أين يجد الفرد نفسه في خدمة الجماعة انطلاقا من رغبته و ارادته، كما العكس صحيح حيث تخدم الجماعة الفرد من حيث هو أحد أفرادها انطلاقا من واجب التآزر مع الآخر، منه تتجلى أسمى قيم التآزر والعيش المشترك باعتبار أن التضامن مع الآخر واجبا أخلاقيا متعقّلا « تعاملا مفتوحا مع الآخر حتى و ان استهدف تقويض السائد والثورة على العادات البائدة « (التريكي، فتحي. 2009: 32).

ومن تمظهرات العيش المشترك كذلك نجد مبدأ **الحوار** مع الآخر الذي غالبا ما يفضي إلى الاتفاق و التفاهم بفعل التواصل الذي بدوره يحقّق التعايش الاجتماعي رغم الاختلاف ومن خلاله يتجاوز الفرد ذاته المتمثلة في القيم المذكورة سلفا « ومن منطلق أهمية الحوار في تحقيق التعايش الإيجابي البنّاء المطلوب، فإنه ينبغي أن تتضافر الجهود

من أجل ترسيخ جهود التعايش الاجتماعي لتحقيق الثمرة المرجوة، فالتعايش الاجتماعي يحد من تطرف الصراعات العرقية، ويكسر من شوكة التعصب القبلي، ويزيل الحواجز النفسية بين طبقات المجتمع المختلفة، ينمي الشعور بالأخوة الإنسانية، كما يقضي عل الحقد والضغينة، ويشيع المحبة والتعاون بين الناس، ويقوي العلاقات بين الأفراد»(غالب، عبد السلام حمود. د ت: 20)، و منه يفتح المجال واسعا للعيش المشترك.

لكن هل يمكن تفعيل تمظهرات العيش المشترك المذكورة من تسامح وتضامن وحوار على أرض الواقع بدون التواصل مع الآخر؟

انطلاقا من هذا التساؤل، يخوض هذا البحث من خلال المسرح باعتباره مرآة عاكسة للمجتمعات في لون خاص هو مسرح العبث، في ابراز اللاتواصل بين البشر باعتباره عائقا أمام العيش المشترك، لكونه مسرحا يعري الذات التي لا تعترف بالآخر بوعي أو بدون وعي، تكلّمه دون أن تصغي إليه، هي ذاتٌ تائهة بين ضغوطات اليومي، ذاتٌ تعيش يومها من خلال تراكمات الماضي، تعيش حياة عبثيّة بلا أفق، فكيف لها إذن أن ترقى إلى العيش المشترك وهي متقوقعة في عالمها، علما أنّ هذا اللّون المسرحي يخصّ الانسان الغربي إلاّ أن مقاصده إنسانية قد تتجاوز الحيز الجغرافي الأوروبي. وقد تم اختيار

مسرح العبث عند» يونيسكو يوجين « كنموذج، لأنّه فضح وعرّى ظاهرة اللاتواصل بين البشر بطريقة عنيفة وكثيفة صدمت الجمهور، وارتقت به إلى الوعي بهذه الظاهرة السلبية التي تقوّض كل مجهود للعيش المشترك.

لكن قبل معالجة اللاتواصل بين البشر من خلال مسرح العبث، وجب أوّلا تدارك ماهية التواصل في شقيه اللساني والاجتماعي إذا أخذنا بعين الاعتبار حيّز اشتغال هذا البحث. أولا لأن المسرح مهما كان نوعه يعتبر اجتماعيا بطبيعته، كفضاء يتشارك فيه المتفرجون كما المتلقّون للعمل الفني ليعيشوا لحظات دراميّة غايتها الفرجة ثم التربية أو التوعيّة، أما الشق اللساني فهو حتما يخص الطابع الخاص بالمسرح الذي يتطور عبر ثنائيّات هي (نص/عرض) (واقع/وهم) (حوار/ارشادات)، أما الشق الاجتماعي فهو لإبراز عمليّة التواصل باعتبارها سندا قويّا لتجسيد التماسك الاجتماعي وعدم تفكّكه.

التواصل في شقّيه اللّساني والاجتماعي.

1- التواصل عند رومان جاكوبسون*

يعتبر مفهوم التواصل مفهوما واسعا، كونه حقلا معرفيا متعدّد المجالات حيث يتخطى الألسنية إلى علم النفس وعلم الاجتماع،

السيمائيات والفلسفة، الأنثروبولوجيا والرياضيات، السياسة، وعالم التقنيّة. والتواصل حسب تعريف جان كازنوف* jean cazeneuve هو «جعل الشيء مشتركا commun، أي الانتقال من حالة فردية إلى حالة جماعية أو اجتماعية عبر الفعل – اللازمة « الاتصال» الذي يتضمّن من بين ما يتضمّن الاخبار، الإبلاغ التخاطب، كما يقوم بنقل الرسائل والرّموز المحمّلة بالدلالات المملوءة بالإيحاءات.

ثم إن التواصل بما هو نشاط تبادلي وعلائقي، فانّه يتمّ بصور شتّى كالأصوات، الإشارات والصور، لكن التواصل اللّغوي يبقى أرقى أنواع التواصل» (هابرماس، يورغين .2010: 8). لهذا تعتبر اللّغة وسيلة أساسية لدى البشر، من خلالها تتجسّد العمليّة التواصليّة من حيث هي الأداة الوحيدة القادرة على نقل الأفكار والرغبات، ومن خلالها كذلك يتفاعل البشر فيما بينهم. وجاءت النظريّة التواصلية بمختلف توجهاتها لتؤكّد هذا المسعى انطلاقا من الدرس اللّساني لعالم اللّغة السويسري فاردناند دوسوسير Ferdinand de Saussure عبر ثنائيّاته وأوّلها (اللغة/ كلام). وقد أوجد هذا الأخير مفهوما هو «الدائرة الكلامية»(دوسوسير، فاردناند .1985: 29-30) التي تعتبر المُنطلق الأوّل الخام لنظريّة التواصل، وشرط وجودها

شخصين على الأقل، (أ) / (ب) ، حيث تنطلق عمليّة (التواصل) الدائرة الكلاميّة من دماغ (أ) حيث الرّبط بين الأفكار و ما يمثّلها من صوّر صوتيّة تنطلق من فم الشّخص (أ) لتصل إلى أذن (ب) فتنعكس لتصبح من الأذن إلى الدّماغ لنفس الشخص، أين يتمّ الربط بين الصورة السمعيّة بالفكرة، و ما إن يتكلّم الشخص (ب) حتى تبدأ معه عمليّة (التواصل)من جديد داخل الدائرة الكلاميّة باعتبارها طبيعيّة، وظيفيّة، و سلوكيّة في آن واحد و التي جسّدها دوسوسير بهذا الرّسم:

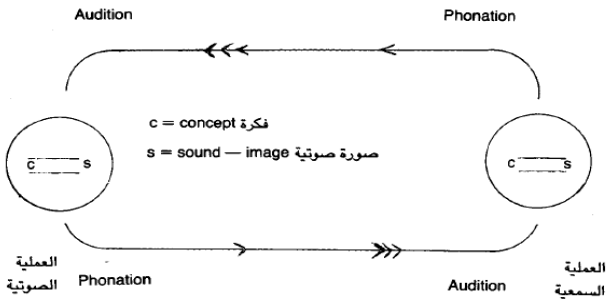

ومن هذا التصوّر الأوّلي لدوسوسير حول الدائرة الكلاميّة أسّس رومان جاكوبسون Roman Jakobson نظريّته للتواصل في سياقها اللّساني الوظيفي، مستفيدا من أحد أهم النظريّات العلميّة الخاصة بالاتّصال من خلال «نموذج كلود شانون Claude Shannon ، نوربرت وينر Norbert Wiener السداسي الذي

يرتكز على قياس رياضي جبري للمعلومة... (مصدر المعلومة-الجهازالمرسِل-الرسالة-مصدر التشويش-الجهاز المستقبل-المرسل إليه)... سرعان ما عمّم نفسه على أشكال التواصل كافة... قد ساهم في التّعميم نموذج رومان جاكوبسون» (الجابري، محمّد عابد. 2010: 12) الذي جاء على الشكل الآتي:

مصدر المعلومة-الجهاز المرسِل-الرسالة الجهاز المستقبل-المرسل إليه

مصدر التشويش

وبذلك هو دمجٌ لمجالين معرفين مختلفين هما الرياضي واللّساني للانتقال من الاتصال التقني البحت إلى التواصل اللّفظي، عبر إضافة مفهومين هما السياق(Contexte) و الصلة (Contact) « ذلك أن السياق كما يحدّده جاكوبسون هو المضمون الذي يتمثّله المرسل إليه، و هذا المضمون إمّا أن يكون لفظا أو قابلا لأن يكون كذلك، و يستلزم التواصل أيضا اتّصالا فيزيقيّا بين أطراف التواصل»(عبد القادر الغزالي، 2003: 38). ومن هنا ظهرت السلسلة التواصليّة عند جاكوبسون كالآتي:

سياق

مرسِل.....رسالة.....مرسَل إليه

اتصال

شفرة

لهذا فنجاح العمليّة التواصليّة عند جاكوبسون مشروط أوّلا بوجود مرسِل ومستقبِل، بينهما رسالة مشروطة بسياق تحيل إليه، ومن أجل تفعيل سيرورة العملية التواصلية عنده وجب أيجاد سنن مشتركة بين المرسِل والمرسَل إليه، وفي الأخير وجب وجود قناة فيزيقيّة تتيح التواصل. لكن جاكوبسون لم يغفل اللغة، بصفتها المحرّك الأساسي للسلسلة التواصليّة حيث أردف وظائف لكلّ حلقة من هذه السلسلة، باعتبار أنّ كلّ حلقة لها وظيفة لسانيّة خاصّة بها حيث أكّد أنّ «اللّغة يجب أن تدرس في كلّ تنوع وظائفها» (جاكوبسون، رومان. 1988: 27-33) وعلى هذا الأساس أصبحت هناك ستّة وظائف للّغة داخل السلسلة التواصلية يوجزها البحث فيما يلي انطلاقا من عمل جاكوبسون ذاته:

- **الوظيفة التعبيريّة الانفعاليّة**: تخص المرسِل وتعبّر عن موقفه تجاه ما يتكلّم عنه.

- **الوظيفة الافهاميّة**: تخص المرسَل إليه وتوظَّف لأثارة انتباهه

- **الوظيفة الشعريّة**: وهي الوظيفة المهيمنة التي تخص الرسالة في حدّ ذاتها.

- **الوظيفة المرجعيّة**: وهي مبرّر وجود العمليّة التواصليّة في حد ذاتها، من حيث هي السياق العام المُدرك من طرف قطبي عمليّة التواصل.

- **الوظيفة الانتباهيّة**: غايتها تأكيد عمليّة التواصل وتُوظّف للتأكّد ما إذا كانت دورة الكلام تشتغل.

- **الوظيفة الميتالسانيّة**: من حيث هي لغة واصفة وتفسيريّة للّغة ذاتها ومرتبطة مباشرة بالسّنن. ومن هنا تتجسّد العمليّة التواصليّة في سياقها اللّساني الوظيفي عند رومان جاكوبسون كالتالي:

سياق/ مرجعيّة

مرسِل/ انفعاليّة..... رسالة/ شاعريّة.....مرسَل إليه/ إفهاميه

اتصال/ انتباهيه

شفرة / ميتاليسانيّة

وخلاصة لما ورد نستطيع القول بأنّ اللّغة في سياقها اللساني الوظيفي تعتبر أداة أساسيّة للتواصل بين البشر عندما تتحوّل إلى كلام. هذه الأداة التي سيسعى مسرح العبث إلى تحطيمها وبالتالي اثبات اللاتواصل من خلال كسر أواصر هذه السلسلة المعيارية لعمليّة التواصل الخاصة برومان جاكوبسون.

2- التواصل عند يورغن هابرماس*

جعل هابرماس من مفهوم التواصل مفهوما محوريا ومنطلَقا لجلّ أعماله الفكريّة، سواء في الفلسفة أو في علم الاجتماع، علما أنّه ينتمي إلى مدرسة فرنكفورت ذات النزعة النقديّة و من رواد جيلها الثاني، الاّ ان أفكاره تجاوزت النزعة المذكورة، و انفتحت على أفكار سبقته في شتى المجالات ، وبذلك جاءت أعماله متميّزة لأنّه « على الرّغم من تأثّره بالنزعة النقديّة المميّزة لهذه المدرسة، إلاّ أنّه لم يقف عند حدودها، بل تجاوزها و استعان بمختلف العلوم الانسانيّة و شتى الاتجاهات الفلسفيّة المعاصرة، كفلسفة التأويل والأنثروبولوجيّا الفلسفيّة، علاوة على الكانطيّة و الهيغيليّة الماركسيّة، و التيارات الفلسفيّة الألمانيّة من القرنين الثامن عشركما التاسع عشر»(أبوالسعود، عطيّات.2002:

91)، لهذا توصف أفكاره الفلسفيّة كما النقديّة الاجتماعيّة على أنّها أفكارا كونيّة. جاء تصوّره الجديد للمجتمع على أنّه مجتمعا كليّا وعقلانيّا مبنيّا على أسس قيميّة ومعياريّة حجر الزاويّة فيه التواصل، وغايته درء الأزمات، ومعالجة الأمراض الاجتماعيّة التي يتخبّط فيها الانسان الغربي، وعليه طوّر مفهومه للتواصل في سيّاقه العقلاني، والعقلانيّة عنده «هي أولا الاستعداد الذي تبرهن عليه ذوات قادرة على الكلام والعمل وعلى اكتساب وتطبيق معرفة قابلة للخطأ» (أبو السعود، عطيّات. 2002: 99)، و من هنا تظهر جليّا محاولة هابرماس لعقلنة التواصل باعتباره ممارسة لا تمرّ إلا من خلال تفاعل الذوات وعبر وسيط أساسي ممثلا في اللّغة. انطلاقا من هذا ظهر مفهوم العقلانيّة التواصليّة التي تُجسِّد كل ما يقوم به العقل من نشاط ، وقد ميّز هابرماس نوعين من الأنشطة يقوم بهما العقل:

- **نشاط عقلي أداتي –غائي** : (العقل الأداتي) غايته المنفعة، باعتباره» العقل المهيمن في المجتمعات الرأسماليّة الحديثة التي فقد فيها العقل دوره كملكة فكريّة وتم تقليصه إلى مجرد أداة لتحقيق أهداف معيّنة، وبالتدرّج فقد العقل رؤيته للهدف وأصبح مجرّد أداء لتوفير الوسائل، وأدى ذلك إلى فقدان العقل للقدرة على إدراك الحقائق في ذاتها حيث أصبح كلّ شيء مجرّد وسيلة»(هابرماس،

يورغين. 2012: 133). هذا العقل الذي أوصل الأنسان الغربي إلى نتيجة مفادها أنّه أصبح شيئا كباقي الأشياء بعدما أعطى الأولويّة للمادة، وأصبح همّه الوحيد النجاح، وأبعد بذلك جوانبه الروحيّة والأخلاقيّة، حيث طغت عليه الغائيّة التي تقدِّس الذات التي غالبا ما تسعى إلى السيطرة والهيمنة.

- **نشاط عقلي تواصلي- اجتماعي:** (العقل التواصلي) باعتباره المحرك الأساسي للتماسك الاجتماعي والوفاق بين الذوات، وبذلك نجده تجاوز للعقل الأداتي النفعي الذي كان منتشرا قبل صياغة هذا المفهوم،وعليه فالعقل التواصلي»يتجاوز العقلانيّة الغربية التي أعطت أولويّة مطلقة للعقل الغائي و التي تهدف إلى تحقيق مصالح و غايات معيّنة، فهذا العقل يُبنى على فعل خلاق يقوم على الاتّفاق بعيدا عن الضغط و التعسّف، هدفه بلورة اجماع يعبِّر عن المساواة داخل فضاء عام ينتزع فيه الفرد جانبا من ذاتيته و يدمجها في المجهود الجماعي الذي يقوم بالتفاهم و التواصل العقلي» (هابرماس، يورغين. 2012: 137). لكن هابرماس لم يكتف بصياغة المفهوم بل أكّد أن وجوده مرهون بالعالم المعاش باعتباره خلفيّة له، تفككوكونه كذلك السياق المرجعي لكل نشاط تواصلي مُمثّلا في التراث الثقافي و لتقاليد، كما التنشئة الاجتماعيّة، كما أنّ العقل التواصلي عند

هابرماس مبنيّ على أساس القول والفعل فقاطرته حتما هي الحوار بين الذوات في سياق أخلاقي يمرّ عبر اللّغة، في هذا الصّدد يؤكّد هابرماس بقوله « إنّنا إذا أردنا أن نفهم الفعل التواصلي علينا أن نفترض اللّغة بوصفها الوسيط الذي يمكن أن يتحقّق فيه نوع من التفاهم (هابرماس، يورغين. 2012: 151).

بهذا تتجلي الغاية من التواصل التي تسعى إلى بناء مجتمع قائم على التوافق، التفاهم. من خلال هذا النشاط جسّد هابرماس نقلته النوعيّة، تميّزه عن ما سبقوه ، عبر تجاوز الذّات من خلال الانتقال من العقل الأداتي دون أن ينفيه إلى العقل التواصلي باعتباره مخرجا لخلاص المجتمعات من الأنانيّة و الغلبة و حب السيطرة كما العنف، والوصول إلى مجتمعات يسودها التضامن، الأمان وهذا ما يؤسِّس لمفهوم العيش المشترك. وعليه يمكن القول أنّ التواصل عند هابرماس ممارسة عقلانيّة تمرّ عبر اللغة من خلال الحوار، تضبطه معايير وقيم أخلاقيّة، والغاية هي بناء مجتمع متماسك تسود فيه المساواة والتضامن وقبول الآخر.

وفي الأخير يمكن القول أنّ البحث اعتمد على النظريّة التواصليّة في بعدها اللساني أوّلا من خلال عرض السلسلة التواصلية عند رومان جاكوبسون، وفي بعدها الاجتماعي ثانيا من خلال العقلانيّة

التواصليّة عند يورغين هابرماس، لغاية توظيفهما كمعيارين موضوعيّين، وكذا لتبرير ما هو آت للوصول إلى الغاية التي تُجسِّد أحد المعوِّقات للعيش المشترك مُمثّلة في اللاتواصل بين البشر، موظِّفا لذلك مسرح العبث عند « يوجين يونيسكو»الذي اهتمّ بهذه الظاهرة وحاول شجبها عبر عرضها.

إدانة اللاتواصل من خلال عرضه في مسرح العبث:

جاءت ولادة هذا المسرح استجابة لمعطيات موضوعية وتاريخية، أحسّ فيها الإنسان الغربي أن كل المسلمات التي كان يؤمن بها من قيم عقائدية وقيم إنسانية لم تعد ذات قيمة، وبالتالي فقدت مصداقيتها وتحولت إلى أوهام وأماني لا يمكن تحقيقها، هي المرحلة التي أعقبت الحربين العالميتين. ومن بين من أكّدوا على خسائرها ووثّقوا لها كان أحد مفكري العبث وهو «ألبير كامي»* عبر أحد رسائله لصديقه الألماني «أتعلم أن سبعة ملايين أوروبي بين رجل وامرأة وطفل اقتلعوا أو نفوا أو قتلوا خلال خمسة وعشرين عاما بين 1922 -1947» (بري، جرمين. د ت: 13). حالة وضعت الإنسان أمام حقيقة لم يستطيع أن يُعقلنها، مهما وجد لها من مبرّرات، رغم تقدّمه العلمي والتكنولوجي وحداثته ونظمه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، لم يستطيع إنقاذ نفسه من وضع كان هو سببا فيه.

إذن هو مسرح ولِد من رحم أزمة إنسانية فاقت قدرات العقل، حيث أن العقل إزاء المعضلات الضخمة، بحاجة إلى مبدأ لا عقلي ينطلق منه عاقلا، هذه الانطلاقة التي تُرجمت إلى عروض مسرحية على يد كتّاب متفرّدين كلٌ له أسلوبه، متأثرين بتجاربهم الخاصة، فاحتاروا في الوضع الإنساني ووجدوا أن العقل والعقلانية والمنطق لا مكان لهم، فأزاحوا العقل وجسّدوا مشروع اللامعنى مسرحيا، وظهر بذلك مسرح العبث ثائرا شكلا ومضمونا على كل ما سبقه من تقاليد وأعراف مسرحية، ومن روّاده «يوجين يونيسكو» الذي اهتمّ بظاهرة اللاتواصل بين البشر باعتبارها نتيجة للتراكمات التاريخيّة، والممارسات السياسيّة والاقتصاديّة والظروف الاجتماعيّة الخانقة، فحاول معالجتها في بعدها الإنساني عبر مسرحه، لذا نجده يقول إن» المسرح كما أراه عرض للعالم الداخلي، فمن حقّي أن أجعل أحلامي، ومخاوفي، ورغباتي الغامضة، وتناقضاتي الداخليّة مادّة مسرحي، ومن حقّي أيضا عرضها على خشبة المسرح» (أبستادو، كلود. 1999: 170)، ومن أهم مخاوفه وهواجسه كان اللاتواصل بين البشر من خلال اللغة باعتبارها حاملة له، حيث الكلمات قد تعبِّر عن كل شيء، وفي نفس الوقت عن لا شيء، حيث تفقد معناها ويحصل التنافر بين الكلمة ومدلولها، وبالتالي تتميع القوة الإعلامية فيها، ولا

تعود الاجوبة والردود مرتبطة بتسلسل الأفكار، حتى الارتباطات المجازية والدلالات تعطي الكلام ملامح الحماقة والسخرية والجنون، أو تعطى مدلولات غير ملائمة.

وفي هذا الصدد يقول يونسكو»إن اللغة في المسرح ليست غاية في حد ذاتها، لكنها عنصر كباقي العناصر، والمؤلف يمكن أن يتعامل معها بكل حرية، وأن يدفعها حتى أنه يستحيل عليها احتواء الدلالة» (Esslin, Martin.1977 :185). غايته في ذلك ادانة اللاتواصل، من خلال تفعيل «**استراتيجيّة الصّدمة**: حيث الواقع في حدِّ ذاته، وعي المتفرّج، وسيلته المعتادة للتفكير اللّغة، يجب قلبها وتفكيكها، لكي تتغيّر نظرته لواقعه» (Esslin, Martin.1977 :135). ولتجسيد شجبه وادانته لواقع اللاتواصل أنطلق يوجين يونيسكو من أصغر خليّة اجتماعية وهي العائلة، حيث كتب مسرحيّة «المغنيّة الصلعاء» ولقّبها بمسرحيّة «تراجيديا التواصل»، وجوهر تراجيديتها هو أصلا حامل مضمونها ونعني به اللّغة، ولتبرير هذا الطرح سنأخذ المشهد الرابع من المسرحيّة كنموذج، حيث خصّصه الكاتب كلّه لعائلة «مارتان» الزوج والزوجة وحدهما على خشبة المسرح حيث يظهر فيه الحوار، كحوار للطرشان يسير في اتجاه واحد، حتى وإن توفّرت شروط التواصل من خلال وجود مرسِل ومرسَلٍ إليه... (بداية المشهد): أعلنت ماري

(الخادمة) عن وصول السيد والسيدة مارتان: كانا ينتظران عند الباب ثم أدخلتهما.[بسبب طول المشهد، بالتالي سيُختزل الحوار كاملا بدون المسِّ بجوهره اللاتواصلي]

« جلس السيد والسيدة مارتان بخجل، كل منهما قبالة الآخر وراحا ينظران لبعضهما خلسة، ويحاولان الابتسام دون كلام؛ ثم يتبادلان النظرات من جديد. أخيرًا قرر السيد مارتان أن يبدأ الكلام:

السيّد مارتان: أرجو قبول اعتذاراتي يا سيدتي، لكن يُخيل لي، إن لم أكن مخطئًا، أنني قابلتك من قبل في مكان ما.

السيّدة مارتان: وأنا كذلك يا سيدي؛ يخيل لي أنني قابلتك من قبل في مكان ما.

لقد اكتشفا باندهاش أنهما من مانشستر، وأنهما غادرا المدينة قبل خمسة أسابيع في قطار «الثامنة والنصف صباحًا» وقد وصل القطار إلى لندن «الخامسة إلا ربعًا» وأنهما سافرا في الدرجة الثانية في المقصورة السادسة من العربة الثامنة. «ما أغرب ذلك، مثير للفضول، يا للمصادفة!» ومنذ أن وصلا إلى لندن سكنا في الشارع نفسه، والبناية نفسها، والطابق نفسه، «ما أغرب ذلك!» لقد ناما في الغرفة ذاتها، عند نهاية الممر، بين الحمام والمكتبة، «ما أعجب ذلك!» وبعد صمت طويل

ومن التفكير العميق دقت الساعة خلاله تسعًا وعشرين دقة، نهض السيد والسيدة مارتان بطريقة احتفالية:

السيّد مارتان: إذن، يا سيدتي العزيزة، أعتقد أن لا مجال للشك بأننا تقابلنا من قبل وأنك زوجتي. لقد وجدتك من جديد يا إليزابيت!» (أبستادو، كلود. 1999: 41).

عائلة مارتن تأتي بإرادتها لزيارة عائلة أخرى، هي عائلة تحمل كل معاني البرجوازية، لكنها عائلة فاقدة لذاكرتها، وعملية التعارف بينهما تتم بطريقة تدرجية، والحالة هي أنهما زوجين يحاولان التعرُّف على بعضهما البعض بواسطة ذكريات تائهة، مستعملين الاستدراج المنطقي لإيجاد النقاط المشتركة، وبالتالي، هما زوجين غريبين عن بعضهما وعن نفسيهما. كلٌّ منهما له همومه وهواجسه، ماهيات مقفلة، الكل في عالمه لا سبيل له إلى الآخر، حوارهما لا وجود فيه لرجع الصّدى، هو حوار في خط واحد، بذلك تحوّلت علاقة مرسِل/ مرسَل إليه إلى علاقة مرسِل/ مرسِل، الرسالة فيه غير واضحة، ليس هناك سياق للكلام وبذلك هي المرجعيّة المفقودة، ومادة الحوار(اللغة) فاقدة للمعنى، بذلك تنفي غايتها التواصليّة، حيث تصبح وظيفيّة تستعمل بطريقة آليّة، فاللّغة ذات الغاية التواصلية تفككت، غابت

عنها الدلالات، كان الطّلاق بين الدال/ المدلول، ما يعني تكسير للسلسلة التواصليّة المعياريّة عند رومان جاكوبسون.

وجاء بعد ذلك المشهد الحادي عشر بشُحنة لفظيّة أكثر حدّة وعنفا في ادانة اللاتواصل، كان أكثر تعبيرا على التفكّك واللاّمعنى الذي أصاب لغة التواصل بين الشخصيات، وحمل بذلك كل معاني تراجيديا التواصل كما سماها يونسكو، وكأن كل شخصية فيه منفردة تُحدّث ذاتها كقول:

السيدة مارتن: يمكنني أن اشتري سكين جيب لأخي بينما لا يمكنك أن تشتري أيرلندا لجدّك.

السيد سميث: نمشي على الأرجل، لكن نستدفئ بالكهرباء والفحم.

السيد مارتن: من يبيع ثورا، يشتري غدا بيضة.

السيد سميث: في الحياة يجب أن ننظر من النافذة» (Ionesco, Eugène.1990:71)

كأنها أمثال شعبيّة تُلفظ لكنها في المقابل خالية من معناها غايتها الحكمة، كلام غير معقول.

لكن مع كل هذا ما لبث الحوار أن تطوّر وتكثّف، وصار أكثر آلية، وكأنه كلام سريالي لا تفكير فيه، بتداعٍ حرٍ على الطريقة الفرويدية وبإيقاع وتسارع منقطع النظير وبلهجةٍ عنيفةٍ تقول:

السيدة مارتن: لاتلمس بابوجي.

السيد مارتن: لاتحرك البابوج.

السيد سميث: المس الذبابة، الذبابة لا تلمس.

السيدة مارتن: الذبابة تتحرك.

السيد مارتن: المسرح مضرب الذباب.

السيد سميث: سكرا موش.

السيد مارتن: سكرا موش.

السيدة مارتن: سانت نيتوش.

السيد مارتن: لديك سريرا.

السيد سميث: أنت تلجمني.

السيدة مارتن: سانت نيتوش تلمس الخرطوش.

السيد سميث: لا تلمسوها إنها محطمة»(Ionesco, Eugène. 1990:77).

هي في الأغلب إعادات لا معنى لها في سياقها اللّفظي، لكن تعني الكثير في رسالتها المسرحية، التي تعالج ظاهرة اللاتواصل والغربة الإرادية ونفي الأخر، بالمقابل نجدها كلمات لها إيقاع ولها شدّة وطابع صوتي وكأنها ألحان موزونة على إيقاع دائم التسارع، غايتها ذاتها، فكّكت حلقات السلسلة التواصليّة، وكأنّ الحلقة الوحيدة المتبقيّة منها هي حلقة الاتصال التي تجسِّد الوظيفة الانتباهيّة، هدفها من ذلك تأكيد عمليّة التواصل وتُوظّف للتأكّد ما إذا كانت دورة الكلام تشتغل. أماّ في الشق الاجتماعي للتواصل، فكيف السبيل إلى العقلانيّة التواصليّة كما أرادها هابرماس وسط هذا الاجهاز العنيف على اللّغة، التي هي أداة للتواصل غايتها التفاهم الذي يتحقّق من خلالها، والهدف من التفاهم عند هابرماس هو «الوصول إلى نوع من الاتفاق يؤدّي إلى التذاوت المشترك وإلى التفهُّم المتبادل والثّقة المتبادلة وإلى التقارب في النظرات والآراء». (أفاية، محمّد نور الدين.1998: 197). إذن كيف للزوجين أن يتفاهما؟ وهما يحاولان التعرف على بعضهما البعض بواسطة ذكريات تائهة، مستعملين الاستدراج المنطقي لإيجاد النقاط المشتركة، من خلال اللغّة التي يعتبرها هابرماس أداة للتواصل في سياق

حديث مثالي غير مشوّه. وهي بذلك تنفي كل المعايير التي أسّس لها عالم الاجتماع هابرماس.

الخاتمة:

وفي الأخير يمكننا القول، أنّه وقع اختيارنا على هذه المسرحيّة لقوّة رمزيّتها وبُعد دلالاتها وعنفها النصّي كما المشهدي، لإبراز ظاهرة سلبيّة تنخر أسس التفاهم والتوافق بين البشر وهي ظاهرة اللاتواصل، حيث يمكن للإنسانية تجاوزها من خلال فتح أفق للحوار بهدف درء المخاطر والأزمات قبل حدوثها، وصولا إلى تجسيد فكرة العيش المشترك وجعلها واقعا يوميا يمارَس من خلال التواصل، ونبذ كل ما من شأنه أن يزرع الفتنة والشقاق وينفي الآخر. لهذا يُرجى ألاّ نجعل من الاختلافات الثقافيّة والعرقيّة، العقائدية والسياسية أو الاقتصادية والاجتماعية سببا ومبرّرا لنفي الآخر، وان يكون لدينا اليقين أنّ التواصل من المسبّبات الأساسيّة للعيش المشترك ومستقبل الجنس البشري، ولا يُدرك هذا المسعى إلاّ عبر شجب ظاهرة اللاتواصل بين البشر، دون أنّ نغفل دور المثقّفين والمفكرين والفنّانين، هو دورٌ فيه من الثّقل و التأثير لترسيخ فكرة التواصل بهدف استباق الأزمات على كل المستويات مع جعل الحوار مطيّة لأفكارهم، لأن دور المثقّف ليس بالدور الهيّن خاصّة وأنّ عصرنا « تهيمن عليه معقوليّة العنف والحرب في أنحاء كثيرة من العالم،

لكن دور المثقّف لا يكمن في إشعال اللّهيب مرّة أخرى، بل عليه أن يبحث في تجعيدات العقل ومطويّات التاريخ ما به يتواصل البشر»(التريكي، فتحي. 2009: 11)، وما مسرحيّة «المغنيّة الصلعاء» لصاحبها «يوجين يونيسكو» إلاّ نموذجا صادقا عن صرخة فنيّة شجبت ظاهرة اللاتواصل، التي نرى أنّها قد تنسف كلّ أمل في تجسيد فكرة العيش المشترك وتقوّض كل المساعي الخيِّرة من أجل مجتمعات متماسكة ومتواصلة.

تعريفات خاصّة بالشخصيات الفكريّة و الفنيّة المذكورة في البحث

(*)جاكوبسون رومان: عالم لغة روسي 1896-1982 من رواد المدرسة الشكليّة، ومؤسّس مدرسة براغ ذلت النزعة الوظيفيّة

(*)دوسوسير فرادنان: عالم لغة سويسري 1887-1913 ومؤسّس البنيوية في علم اللسانيات.

(*)كازنوف جان: عالم اجتماع فرنسي و مدير التلفزة الفرنسيّة 1915-2005.

(*)كامي ألبير: مفكّر و وكاتب مسرحي وروائي و صحافي فرنسي-جزائري **1913-1960.**

(*)هابرماس يورغين: 1929-فيلسوف وعالم اجتماع ألماني ينتمي إلى مدرسة فرنكفورت الألمانيّة ومن رواد جيلها الثاني.

(*)يونيسكو يوجين: كاتب مسرحي روماني 1909-1994 من رواد مسرح العبث.

قائمة المراجع:

- **قرآن كريم**
- أبستادو كلود (1999). **يوجين يونسكو**، ترجمة قيس خضور: منشورات اتحاد كتاب العرب.
- أبو السعود عطيّات (2002). **الحصاد الفلسفي للقرن العشرين**، الاسكندريّة: منشأ المعارف.
- أفاية محمد نور الدين (1998). **الحداثة والتواصل في الفلسفة النقديّة المعاصرة، نموذج هابرماس**. بيروت: افريقيا للنشر.
- بري جرمين(د.ط.د ت). **البير كامي**، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا: مكتبة الاسكندرية .
- التريكي فتحي (2009). **فلسفة الحياة اليوميّة**، ط1.تونس: دار المتوسطيّة للنشر.

- الجابري محمد عابد(2010). **التواصل نظريات وتطبيقات،** ط 1. بيروت: الشركة العربية للأبحاث والنشر.
- جاكوبسون رومان(1988). **قضايا الشعريّة،** ط1. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.
- دوسوسير فرديناند(1985). **علم اللّغة العام،** ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز، ع3. بغداد: دار آفاق عربيّة.
- غالب عبد السلام حمود (د.ت). **أثر الحوار في التعايش مع الآخر.** صنعاء: شبكة الألوكة.
- الغزالي عبد القادر(2003). **اللسانيّات ونظريّة التواصل،** ط1.اللاذقيّة: دار الحوار للنّشر والتوزيع.
- قرار الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة(12/ 2017). **اليوم الدولي للعيش معا في سلام،** الجلسة العامة 68.
- هابرماس يورغين (2010). **إتيقا المناقشة ومسألة الحقيقية،** ترجمة د. عمر مهيبل، ط1. بيروت: منشورات الاختلاف.
- هابرماس يورغين (2012).**الأخلاق والتواصل،** بيروت: التنوير للنشر.

- Del Sol Jean Philippe, (1982).**Le péril de l'idéologie**. Nouvelle Edition latine .Paris.
- Esslin Martin. (1977), **Théâtre de L'absurde**. Ed Buchet/Chastel. Paris.
- Ionesco Eugène. (1990), **La Cantatrice chauve suivie de La leçon**, Gallimard, Paris.